

المعاش

بقلم / خالد عبد الرؤوف

اليوم يتوقف قطار حياته، وتنتهي معه متاعبه وآلامه، ورحلة البحث عن الذات والزاد. سيودع ذكرياته حلوها ومرها، ويودع كرسيه ومكتبه، ويترك أدراجة مفتوحة للمرة الأولى. سيفارق حوائط حجرته الرمادية اللون، المنسوجة بالعناكب. شاهد عيان على صبره وصموده.. ويودع زملاءه الوداع الأخير. وتنهمر دموع حارة بريئة، ودموع أخرى مزيفة. ويمصمص بعضهم شفتيه، ويتمنى آخرون حياة جديدة هادئة. ودعاء بالتوفيق من القلوب البيضاء. أما الدعوات المللعة بالذهب بلا رجعة فيقينا له نصيب منها من القلوب الملونة.. ولكنهم جميعاً زملاء، وشركاء رحلة العمر المهنية. أربعون عاماً من الكفاح والعمل المتواصل، لم يهن، ولم يثن، ولم يشكو لأحد عنته، وقسوة أيامه، واليوم يتسلم ورقة متهورة بكلمات شكر مستهلكة، ومعاشاً هو كل أمل في تحسين شؤون حياته، ومكافأة قالت عنها قوانينهم ولوائحهم إنها تقرر حسب الدرجات والترتب وفصيلة الدم.

وليس حسب المزايا الخلقية أو المهارية أو

والتحية بتلقائية غير متكلفة. ومنهم من كان رد فعله بطيئاً، ولكنهم أيضاً مددوا أيديهم، ورددوا معه تحية الوداع بابتسامة مبهمة..!

ولكنه لم يسلم من تعليقات بعضهم الساخرة والمتعاطفة، وخاصة النساء، فإحداهن فرت صارخة من أمامة وقد حسبتة مجنوناً!! وأخرى خافت على نفسها من الاختطاف!! أما من ضحك بمرارة، وتعجب من قدر الزمان، فهو كل من شاهده من بعيد أو من اقترب منه.

ما زال في طريقه يتشبع من رؤية كل ما تقع عليه عيناه. فاليوم.. واليوم فقط، شعر بنبض الأشياء، وبأشكالها، وحركة الناس وأصواتهم، وكأنه يرى ويشعر ويسمع للمرة الأولى في حياته.

كانت الأتوبيسات تمرق أمامه، فيجدها بيوتاً داكنة الحمرة ذات نوافذ معتمة، تطل منها وجوه شاردة، متجهمة، لها نظرات مجهولة المعنى والقصد. أما داخل تلك البيوت

كان مبكراً على غير العادة.. تملكه أحاسيس غامضة، ومشاعر مختلطة من الشعور بالنهاية والبدائية، والخلاص والميلاد. ولكن إيمانه بالله وعزيمته التي لا تلين زاده صبراً على صبره، ورسماً على شفتيه ابتسامة متواضعة من الرضا والتفاؤل. اعتمد على الكريم، يسير بخطى هادئة متمهلة، قاصداً موقف الأتوبيس. وكان اثناء سيره ينظر إلى أي شيء، وكل شيء. كان يتأمل الناس والشوارع، والبيوت والحوانيت. كمن لديه شعور بأنه لن يسير في تلك الطريق مرة أخرى، ولن يرى تلك الوجوه المألوفة/ المجهولة من أصدقاء الطريق. كان يودع أشياء يراها للمرة الأولى. وأتته فكرة عفوية، شرع في تنفيذها على الفور، بتلقائية وبشاشة. فتقدم لكل من لقيه، ومد يده بالسلام والأحضان، وسؤال عن الصحة والأحوال، ووداع مشحون بالدعوات الطيبة، حتى النساء كان لهن نصيباً من سلام اللقيا وتحية الوداع أيضاً. والغريب أن كثيراً ممن قابلهم قد بادلوه السلام



قصة قصيرة

شيء يتكىء عليه.. فشل.. اشتد صراخ
آلامه.. آهات خرساء.. آلام الروماتيزم
تنخر في عظامه كالسوس الأعشى (كم ستكون المكافأة؟
جهاز البنت.. مصاريف المدرسة.. طرحة لأم العيال.. كيلو
لحمة من الجزائر.. بطانية لأجل الشتاء.. الكميالة الأخيرة)
بدأ الدم الساخن يهرب من عروقه، ورويداً رويداً فقد
الإحساس بالألم بعدما تخدر بدنه تماماً. حلق في الوجوه
المحيطة به وتحجرت عيناه.. ارتخت يداه الواهيتان.. قفز إلى
وعيه المحتضر. محضر تسليم العهدة. الدفتر ذو الجلدة
الزرقاء.. أمين المخازن وتلفيقاته القانونية.. أذونات صرف..
معدات.. مكاتب.. أقلام رصاص.. المدير العام شخصياً.
ولكن ليس لتوديعه هذه المرة!!

(لقد أتى يومي.. استرها يا ستار.. وماذا أفعل في عجز
العهدة الموروثة؟ عهدة من لا عهد لهم ولا ضمير..).

انتابته رعدة فزع، تلتها نوبات من اليقظة المتوجسة.

ترأت له الأجساد المتلاحمة كآلاف من الموتى محشورين
داخل قبر معتم. تاهت نظراته بين المعاني والأشكال. أشياء
داخله تحتضر. تنهش جسده. تعصر قلبه.. تصرخ في
صمت. تنادي الحياة.. تنتظر المكافأة.

أين يتصاعد من الأعماق: كم ستكون المكافأة؟ وكم
سيكون المعاش؟... جهاز البنت... المدرسة... طرحة...
الشتاء.....!!

تهاوى في سكون.. سقط بين الأقدام.. التفت حوله
أجساد متعجبة.. خنقت روحه أنفاس متطفلة.. صوت
يخرج من بين الأصوات: لا حول ولا قوة إلا بالله.
الرجل كان واقفاً كالأسد.

المتحركة فذاك العذاب الديني. أنفاس لاهثة.. أفواه
برائحة طعامها.. عطور رديئة وصارخة.. أجساد مترهلة
ومتصلبة.. سيقان بشرية تنوء بحمل هياكل شاحبة.. مجتمع
متكامل محشور كيفما اتفق. لتظنهم أسرة واحدة مسها
الفزع. فتداخلوا، وتلاصقوا ملتحمين ببعضهم البعض.
صعد لا إرادياً. تدفعه أيادي الآخرين المتعجلين ترك
جسده يتحرك بين الأجساد المتأرجحة. بلا مقاومة.. بلا
جهد.. تحامل بجسده على الأكتاف المتلاصقة كي يحصل
على حيز للوقوف معتدلاً. استعاد نفسه لحظة. فكر في يومه
الأخير (آه.. كم ستكون المكافأة؟... جهاز البنت..
مصاريف المدرسة.. طرحة لأم العيال.. كيلو لحمة من
الجزائر.. بطانية لأجل الشتاء.. الكميالة الأخيرة) لم يخطر
الوقوف. عاودته آلام المفاصل. زاغت عيناه من البحث عن
مقعد (يا رب ماذا حدث للناس؟ أين احترام كبار السن
والشيخوخة؟ آه يا زمن! وآه من هذا المكتوب!
هانت الشيخوخة. ورخصت السنون!) ارتفع صراخ آلامه،
ولم تعد شفتيه. فلم يعد أحد يشعر بأحد...!!! خارت
قواه.. ترك جسده.. تبسم بمرارة. سيصافحه المدير العام
شخصياً، ويشد على يديه، ويمتدح أمانته ونزاهته
وإخلاصه في عمله. ويتمنى له حياة سعيدة. وربما أعطاه
مكافأة شخصية... ربما!!! وقعت يداها على امرأة عجوز
معتصرة بين الأجساد. رمقته بنظرة عتاب خاطفة.. تذكر أمه
ودعواتها المتواصلة الصادقة (ربنا يفتح عليك يا ولدي.
ويوسع رزقك ويطول عمرك) (آه يا أمي في زمن النسيان
تركوني. ونسيتك. ونسيت أمنية عمرك وحلم شيخوختك.
فأنا مثلك يا أمه.. مشتاق ومتعطش لزيارة قبر الحبيب
المصطفى عليه الصلاة والسلام). تزحزح جسد كان
يلاصقه. استطاع أن يلف جسده الضئيل برفق.. بحث عن



عن اللغة القومية في طاجيكستان

بقلم / د. محمد السعيد جمال الدين*

في سنة ١٩٦٧م، حين كانت جمهورية طاجيكستان واحدة من الجمهوريات السوفيتية، دعا السكرتير العام لاتحاد الكتاب الطاجيك إلى عقد ندوة في العاصمة «دوشنبه»، حضرها وفود من كل من إيران وأفغانستان وباكستان والهند وطاجيكستان. وكان موضوع الندوة: الشعر الفارسي المعاصر في الدول المذكورة: الحاضر والمستقبل.

وحيث عاد الوفد الإيراني - الذي شارك في تلك الندوة برئاسة الأديب والناقد المعروف المرحوم الأستاذ برويز ناتل خانلري - نشر تقريراً مفصلاً عن كل ما لفت انتباههم هناك^(١).

وكان أهم ما سجلوه في التقرير أن اللغة الفارسية - وهي اللغة القومية للطاجيك - ما زالت حية قوية، ورغم ما مُني به ذلك الشعب من سيطرة متواصلة للغرباء، منذ القرن الثالث عشر الميلادي إلى الآن. ابتداء من المغول ثم الأتراك ثم الروس. غير أن الشعب الطاجيكي، ظل محافظاً على لغته القومية، وما زال الشعر الفارسي يعدّ من أهم عناصر النشاط الذهني للمثقفين الطاجيك وأرقاها، ودُيِّل التقرير بمختارات لبعض شعراء الطاجيك المعاصرين.

والحق أن من يقارن بين التقرير المذكور، وبعض القصائد المختارة، التي دُيِّل بها، يشعر بحيرة بالغة وتناقض صارخ، فالتقرير يحاول أن يحمل قارئه على الاقتناع بأن اللغة القومية للطاجيك تشهد ازدهاراً ورواجاً، ولا تجد مقاومة أو ضغطاً يذكر من جانب اللغة الروسية، وهي اللغة الرسمية لسائر الجمهوريات السوفيتية، غير

أن المرء حين يُنعم النظر في الأشعار المختارة التي دُيِّل بها التقرير يصادف قصيدة - من الشعر الحر - لأحد شعراء الطاجيك المعاصرين هو الأستاذ «عبيد رجب» جعل عنوانها: تاهست عالمي تاهست آدمي، أي تبقى الإنسانية ما بقي العالم.

إبانة خفية

والقصيدة تعرض لمحنة اللغة الفارسية في طاجيكستان وقت أن نُظمت، (أي سنة ١٩٦٧)، فهي تنطوي على إبانة خفية بأن هناك من يحرص على الحد من انتشار تلك اللغة وتقليص نفوذها، وإجبارها على عزلة كاملة عن الحياة العامة توطئة لاندثارها.

الشاعر يستخدم الأمثال ليجهل القاري ويفق على شاعره وأحاسيسه

والشاعر - بطبيعة الحال - لا يتعرض لتفصيلات تلك الممارسات والخطوات المحسوبة، التي ترمي في النهاية إلى القضاء على اللغة الأم للشعب، بل يصف شعوره بالضيق مما يرى وعجزه عن تصديق مقولة عدوه: إن لغته الجميلة ماضية لا محالة نحو الاندثار والزوال.

والمعنى الذي يقارن بين التقرير المذكور، وبعض القصائد المختارة، التي دُيِّل بها، يشعر بحيرة بالغة وتناقض صارخ، فالتقرير يحاول أن يحمل قارئه على الاقتناع بأن اللغة القومية للطاجيك تشهد ازدهاراً ورواجاً، ولا تجد مقاومة أو ضغطاً يذكر من جانب اللغة الروسية، وهي اللغة الرسمية لسائر الجمهوريات السوفيتية، غير

يبدأ الشاعر قصيدته^(٢) بقوله:
كل لحظة يواجهني
عدوّي فيقول لي:
إنّ نهجك الفارسي سيتلاشى كالذخا
سوف يفنى ويتفرق
لا، لا أصدق
لا، لا أصدق
لا، لا أصدق

ويحدثنا الشاعر في قصيدته أن لديه من الأسباب المعنوية ما يحول بينه وبين التصديق؛ فهذا الجمال وتلك البلاغة التي تتميز بها ألفاظ لغته لا يمكن أن تتبدد، يقول:
يا له من لفظ
للطفه ورقته

يتجلّى في الرّوح الحضور
وعلى وقع أنغامه
يرقص اللسان
ويستثير البصر

لفظ، بلون الزهور الحمراء على حواف
الجمال
لفظ، كقبلة الحبيب تُعشّ الروح
هو أعذب وألذّ
من قضم السكر
هو أقوم وأعزّ
من نصائح الأمهات

(*) أستاذ اللغة الفارسية وأدائها بكلية الآداب - جامعة عين شمس.

له جمال البنفسج وشذى الدلال
يستمد صفاءه من النبع
وتدققه من ماء الغدير
يبعث النسمات تترى كل حين
كأزهار الربيع
ما أعجبه، هو كتغريد البلابل
وما أروعه، كأنه الشلال
بفورانته وموجه
موج، وحين يعلو الموج
بنغمه ولحنه
بشهادة الصافي العذب
يذوب القلب
تغمره السعادة
ويملؤه الحب

فالشاعر لا يصدق أن تفنى لغته الأم
وتتبدد، لأنها تبدو عنده ظاهرة من ظواهر
الطبيعة، تامل أجمل ما في الطبيعة من مظاهر
ومناظر وأقواها.

هي لغة جميلة لكنها قوية عاتية، تتسق مع
الحياة والأشياء ولا تتنافر، فأتى لها أن تموت.
ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك لبيان مدى
ارتباطه هو بلغته ومحبته لها، وشغفه بها،
ويضرب الأمثال لكي يجعل القارئ يقف
على مشاعره وأحاسيسه:

اللفظ الذي يحمل عقيدتي، ووجودي
لفظ، يجعلني أسجد في مواضع السجود
كعشق حبيبي
كتراب وطني

عندما أصبحت اللغة نواة تتحقق من خلالها هوية الأمة

كدهشة الطفولة

كبيت للروذكي^(٣) الشاعر

هو عندي كذرات نور البصر

هو عندي كبوارق قيسات السحر

أحيا، ويذهب من عيني كالدهان؟

أيتبدد ويفنى؟

لا، لا أصدق.

فالشاعر مرتبط بلغته ارتباط مصير، معتز
بها، وبتراثها، وهو يملك بهذا التراث - شيئاً
يهديه إلى العالم، شيئاً لا يملكه إلا شاعر من
أبناء تلك اللغة، يقول:

أنا أحمل اسمها
يعلو رأسي لأوج السما
بالشوق أطير
تبدى لعيني رجال العلا
لأني نظمت بها منطقاً
ونظمي القوي بها قد حلا

إنني بما أملك من نصائح سعدي
وبما أملك من أشعار حافظ^(٤)
قد أهديت الدنيا عالماً
هو المحبة والعشق

ولأن الشاعر ابن تلك اللغة التي أنشأت
للإنسانية هذه المعاني الرائعة التي بها تحيا،
فإنه يهذي من روع عدوه. ويطمشه إلى أنه
لن يقابل هذه الإساءة والشماتة الظاهرة
بالإساءة. يقول، وهو يحتتم قصيدته:

لا تجزع أيها العدو
لا تتوقع مني إساءة
فهذه المحبة في قلب
من منح العالم الحب
تبقى على الدوام
شابة فتية،
ما بقي العالم
وما بقيت الإنسانية

إن من يقرأ القصيدة
يحس بمدى لفة الشاعر
على لغته، التي تتعرض
لحملة ضارية تهدف إلى

محوها من الوجود.

على أن التقرير الذي نشره الوفد الإيراني -
بعد عودته من الندوة - لم يسعف بشيء من
المعلومات في هذا الصدد، وإنما بدا وكأن
أعضائه كانوا مبهورين بما شهدوه من عناية
ظاهرة باللغة الفارسية، تذبذبا الأوساط الأدبية
هناك، وتصوّر لهم أن اللغة القومية

لطاجيكستان ما زالت بخير.

مطلب غريب

كان ذلك سنة ١٩٦٧. غير أن التطورات
في تلك المنطقة ما لبثت أن تلاحقت وانتهت
باستقلال الجمهوريات الإسلامية، ومن بينها
جمهورية «طاجيكستان» سنة ١٩٨٩.
وأذاعت الصحف ووكالات الأنباء أن
مظاهرات هائلة قامت في العاصمة «دوشنبه»
وعمت المدن الطاجيكية كلها، تطالب بإلحاح
بمطلب بدا غريباً في ذلك الوقت. وهو: أن
تكون اللغة القومية هي اللغة الرسمية
للجمهورية حديثة الاستقلال. وعلى الأثر
اجتمع مجلس الشعب الطاجيكي ووافق على
جعل الفارسية الطاجيكية لغة رسمية للبلاد.

فما الذي حمل الطاجيك على القيام بتلك
المظاهرات؟ ولماذا كان المطلب الأول
للجهاير بعد الاستقلال مطلباً ثقافياً بالدرجة
الأولى؟

هل مثلت اللغة القومية في تلك
اللحظات الحرجة من حياة الشعب قيمة
ذاتية، وبدت كالنواة التي تتجمع فيها وتلتف
حولها كل الصفات القومية الموروثة للأمة،
وتتحقق بها هويتها، ومن ثم لم يعد هناك من
شيء أقوى من اللغة لكي يعبر عن معنى
القومية؟

وهل أدرك الشعب بفطرته هذا المعنى،
فكان مطلبه الأول بعد الاستقلال إعلاء شأن
لغته، ورفع رايته، لكي ترفرف على ربوع
البلاد من جديد، وتنهض لتزويد الفكر
الإسلامي والإنساني بزاد جديد؟

وهل كانت تلك المظاهرات العارمة التي
عمت البلاد تنادي باللغة القومية لغة رسمية،
تمثل رد فعل لما كان يجري من محاولات في
العهد المتقدم لتقليص نفوذ تلك اللغة
وتحقيرها ودفعها إلى زاوية النسيان؟

على أن هذا المطلب الشعبي الناجز، بدا
متسقاً تمام الاتساق مع المعاني التي حفلت بها
القصيدة الرائعة، التي أنشدها الشاعر «عبيد

رجب» قبل ربع قرن من الزمان، عن دوام اللغة الفارسية واستمرارها، برغم كل الصعاب.

وكان لا بد لنا أن نلتزم توضيحاً لكل هذه المسائل، ورداً على كل هذه التساؤلات، مما يقوله الطاجيك أنفسهم، فهم أقدر الناس على كشف الحقيقة في القضية برمتها.

بيان وتوضيح

لقد جاء هذا التوضيح من جانب واحد من كبار المثقفين الطاجيك هو «الدكتور تورسون زاد» عضو أكاديمية العلوم الطاجيكية، ورئيس شعبة الدراسات الشرقية بها^(هـ)، حيث نشرت له مجلة «آينده» الإيرانية مقالاً بالفارسية عن المحنة التي عاشتها تلك اللغة في الحقبة السوفيتية.

وصف الدكتور «تورسون زاد» ما حل بثقافة بلاده من دمار، في أعقاب الحركة التي سميت في عهد «ستالين» بالثورة المدنية، وهي التي بدأت بتوجيه من الحزب البلشفي وتأييد من جانبه «فاجتاحت كل الشواطئ العامرة للثقافات الوطنية، كأنها أمواج البحر الكاسحة العامرة، وانخدع عامة الناس وفتنوا بها».

«وقد بدأت الثورة المدنية الستالينية في كل من طاجيكستان وأوزبكستان، ببناء أفران ضخمة، أحرقت فيها أعداد هائلة من الكتب الفارسية والعربية، ثم جاء الدؤور بعد ذلك على المساجد والمدارس والآثار المعمارية القديمة، ذات الطابع الديني، فخرّبوا أغلبها، لقد كان في «حُجُتْد» على سبيل المثال أربعاً مائة مسجد، لم يبق منها بعد الثورة المدنية إلاّ مسجد واحد، وحُوِّل ما بقي من ذلك كله إلى اصطبلات وشوادر للخشب ومخازن للوقود، كما حُوِّل جانب منها إلى سجون.

«وفي النهاية شُهر سيف ستالين فوق رؤوس من كانوا يُعرفون برجال الدين، كان هؤلاء جميعاً ممن يكتب بالخطوط القديمة، وأهل علم بالعلوم الدينية والنقلية، ولم

يستطيعوا في ذلك الحين مغادرة أوطانهم، بل لم تكن لديهم رغبة في ذلك، ومن ثم قُتل منهم من قُتل، وشُجن من شُجن، ونفي الباقون إلى المناطق الباردة (سيبيريا)، ويقال إنه بعد التمرد الذي حدث في «بُخارى» وعقب الحرب الأهلية التي استمرت في «طاجيكستان» حتى بداية الثلاثينيات من هذا القرن، هاجر أكثر من مليون من الطاجيك والأزبك إلى أفغانستان وغيرها من البلاد الإسلامية فراراً من المذابح.

«وفي ختام كل هذه المظالم البربرية فُرضت الأبجدية الروسية المعروفة بحروف «السيريليك» لكي تُكتب بها اللغة الفارسية الطاجيكية، والتي ظلت تكتب بالخط العربي طوال ألف ومائتي عام، الأمر الذي أفضى إلى أن الطاجيك انفصلوا عن التراث الأدبي والعلمي والديني للأجيال السابقة، كما

جرى حرمانهم من التواصل مع إخوة لهم في الدين وفي اللغة، بسبب الأسوار الهائلة التي أقيمت حاجزاً بينهم وبين جيرانهم.

ويشير الدكتور «تورسون زاد» إلى أن كل هذا «الضغط السياسي والأيدولوجي قد حدّ من اتساع دائرة النشاط والنفوذ الاجتماعي للغات الوطنية، كاللغة الفارسية الطاجيكية التي حملت ثقافة إيجابية عبر مئات السنين، وتم الحد من قوتها التاريخية والثقافية بدرجة ملحوظة».

ويؤكد الدكتور «تورسون زاد» أن سياسة تعقّب اللغات الوطنية وتحقيرها لم تكن من وضع «ستالين» «وبريجينيف» بسبب ما عُرف عنهما من «جهل مفرط وعمى ثقافي. كما يزعم بعض المراقبين، بل إن هذه السياسة شأنها شأن كل الظواهر الاجتماعية والأيدولوجية التي تبلورت بعد الثورة البلشفية - تضرب بجذورها في تاريخ الإمبراطورية الروسية، فلم يكن لروسيا القيصرية من هدف سوى تنفيذ سياساتها التوسعية، من أجل تحويل المنطقة

التي كانت تُعرف حينذاك باسم «تركستان» إلى مصدر للمواد الخام، وهي سياسة سوداوية، ترمي إلى إلحاق الضرر بالثقافات الوطنية، وبعث عوامل للفساد فيها، توصلاً إلى القضاء على حس التحقيق الذاتي، ومعرفة الذات لدى الشعوب غير الروسية.

«وفي ظل الحقبة السوفيتية استمر تنفيذ هذه السياسة نفسها، ولكن بشكل لطيف، وثوب أكثر حلاوة وروعة، وبطريقة تنطوي على الخداع والمخاتلة».

يقول «تورسون زاد» مبيناً مدى التأثير الحاسم لتوجيهات الحزب على الناس «وليس بوسعنا أن نعثر في تاريخ الإنسانية الطويل، على دولة تصبح السياسة فيها عاملاً بهذا القدر من الأهمية والتأثير كالدولة الروسية،

ضام سيف ستالين الذي شُهر في وجوه العارفين بالقرآن

فقد استوعب هذا القدر كل فروع الحياة عند الناس جميعاً، وملك على الناس قلوبهم، وسيطر على ميولهم، ووضع تحت فضّ خاتمته شُماً أيدولوجياً، فلم يمكن العثور على علاج له».

وبين «تورسون زاد» أن اللغة كانت هي الهدف الأول، والغرض الأخير، لذلك كله، فلقد كانت سياسة ستالين وورثته - كخروتشوف - عبارة عن جذب الشعوب غير الروسية، ثم صهرها في بوتقة اللغة الروسية بأسرع ما يمكن، ولم يكن الأمر مقصوداً على الفارسية الطاجيكية وحدها، بل امتد إلى سائر اللغات الوطنية للشعوب السوفيتية، حتى تلك اللغات السلافية، التي تنتمي إلى نفس السلالة اللغوية التي تنسب منها الروسية، كالبيلوروسية والأكرانية.

ويفسر لنا الدكتور «تورسون زاد» ذلك الشعور الذي خامرنا من قبل بأن ثمة تناقضاً، بين الدعاية الحزبية القائلة بدعم اللغات الوطنية، والواقع العملي الذي تعيشه

أجل، ما زالت الفارسية في «طاجيكستان» تعاني من جراحات الماضي القريب، لكنها قادرة على أن تستعيد مجدها من جديد، وأن تعمل على تزويد الفكر الإسلامي والإنساني بزاود نشط جديد لشعب طالما جرى إبعاده عن حلبة المشاركة في الحركة الثقافية للأمة، وحرمانه من استخدامه أدواته الحقيقية الأصيلة - وهي لغته القومية - في التعبير الصادق عن ذاته، والإنصاح البين عن ملكاته، والتواصل الإيجابي مع أمته، ومع العالم أجمع.

الهوامش

(١) نشر التقرير بمجلة «سخن» الإيرانية سنة ١٣٤٦ هـ. ش. / ١٩٦٧ م بعنوان: بزم سخن در تاجيكستان (عقل الشعر في طاجيكستان).

(٢) نشر هذه القصيدة وعلق عليها أيضاً الدكتور «غلام حسين يوسف» في فصل من كتابه «جشنه روشن» ونشرت مجلة «آينده» الإيرانية هذا الفصل نفسه في عددها الصادر في

صيف ١٩٩١ م.

(٣) من أكبر شعراء الفرس، ولد بالقرب من سمرقند، وعاش في بلاد السامانيين، كان استاذاً بارعاً في فنون الشعر، وتوفي سنة ٣٢٩ هـ / ٩٣٩ م.

(٤) سعدي وحافظ من كبار شعراء الفرس.

(٥) حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة موسكو. وشارك في العديد من المؤتمرات خارج بلاده، راجع مقال: ابرج افشار: ديدار با همزبان تاجيك (لقاء مع الطاجيكي الذي يتكلم نفس لغتي) مجلة آينده، سال هجدهم، شماره ١-٦-١٣٧١ هـ. ش. (١٩٩٢ م).

(٦) يشكو أحد الأدباء الإيرانيين، هو الدكتور مير احمد طباطبائي من كثرة المصطلحات الأجنبية المستخدمة في الفارسية الطاجيكية، ويدعو إلى تحويلها إلى مصطلحات فارسية موحدة بين أهل اللغة. انظر مقالاً له بعنوان: نكاتي بيرامون فوهنكي إيران وتاجيكستان. (ملاحظات حول الرابطة الثقافية بين إيران وطاجيكستان) مجلة ادبستان الإيرانية عدد ديسمبر ١٩٩٢ م.

(٧) انظر مقال الدكتور طورسون زاد أيضاً.

غيرها من البلاد»، فالتطور القسري الذي شهدته اللغة الطاجيكية في معجمها واصطلاحاتها، من شأنه أن يجعلها لغة تباين كل المابينة فارسية كل من إيران وأفغانستان». وربما أضفنا إلى ما قاله الدكتور «طورسون زاد» في هذا الصدد الحيلولة دون ظهور نزعات قومية وعرقية في تلك الجمهوريات، باعتبار أن اللغة هي الركيزة الأولى للقومية، سيما وأن الفارسية تتمتع برصيد كبير في اكتناز الخصائص القومية لأهلها. ولكن ماذا كانت نتيجة هذه المحاولات كلها؟

يشير الكاتب الطاجيكي المرموق إلى أن التنفيذ العملي لهذه الخطة برؤيتها، قد مني بفشل ذريع، إذ أثبت أن اللغات الوطنية وقفت سداً منيعاً، ولم تلحق بها الهزيمة، على عكس ما كان متصوراً.

تدمير متعمد لحق باللغة في البلاد لإحداث التقارب مع الاشتراكيين!

تحقق النبوءة

وبعد الاستقلال نشأت في «طاجيكستان» نهضة ثقافية جديدة، حققت العديد من النجاحات، فأصبحت الفارسية الطاجيكية اللغة الرسمية للبلاد، وتعهدت الحكومة بالدفاع عن الحقوق التاريخية لتلك اللغة، لا في نطاق الجمهورية وحدها، بل في الخارج كذلك.

وأعلن رسمياً أن التدريس في المدارس الابتدائية سوف يجري بالأبجدية العربية، وتعهدت الحكومة بالمساعدة في طبع ونشر الصحف والمجلات والكتب بالحروف الفارسية^(٧).

لقد تحققت نبوءة الشاعر بأن لغته الجميلة القوية لن تموت، وإنما ستبقى: ما بقي العالم، وما بقيت الإنسانية.

تلك اللغات فيقول: إن الأجهزة الدعائية للحزب والدولة، ظلت سنوات طويلة تؤكد أن لغات الشعوب السوفيتية تقف كلها على قدم المساواة، بغض النظر عن حجم كل شعب منها، غير أن تلك الأجهزة هيأت من الوجهة العملية ظروفاً اقتصادية واجتماعية وسياسية وأيدولوجية مساعدة، لبسط نفوذ لغة واحدة هي اللغة الروسية.

وبلغ الأمر في السبعينات أن يصبح تعليم اللغة الروسية إجبارياً في رياض الأطفال والمدارس الابتدائية، وأخذ عدد الساعات المخصصة لتعليم اللغة الأم يتناقص سنة بعد أخرى، وكان التدريس في معظم الجامعات والكليات، يجري أصلاً باللغة الروسية. ولقد أفرط دعاة الشيوعية في «طاجيكستان» في ذلك الاتجاه، حين أصدروا أمراً بأن يكون التدريس في كليتي الطب والزراعة باللغة الروسية، علماً بأن معظم طلاب هاتين الكليتين من الزيف الذي لا يتقن أهله الروسية إتقان أهل المدن.

وبينه الكاتب إلى ما لحق

ببنية اللغة من تدمير متعمد، من جرّاء تعرضها لضربات فنية، أريد بها إخراجها من مسارها الطبيعي، وعرقلة تطورها الذاتي، وإدماجها - عاجلاً - باللغة الروسية، وذلك تحت ستار المبدأ القائل بتحقيق التقارب بين الأمم الاشتراكية.

«وكانت وسيلتهم في ذلك ملء معاجم اللغات الوطنية بالمصطلحات الروسية ومصطلحات الاشتراكية الدولية».

«نعم، كان من المتيقن أن تدخل هذه المصطلحات في اللغة الوطنية بطريقة تتواءم مع طبيعة اللغة ومقاييسها الذاتية، لكنه أُملي من خارج تلك اللغات، لكي يعصف بالمعايير المتداولة - في بنيتها اللغوية.

«وينتج عن هذا الأمر بالضرورة تحقيق التباعد^(٦) بين المتحدثين بهذه اللغة في الجمهوريات السوفيتية، والمتحدثين بها في